طبائع الفيل

الفيل اضخم الحيوانات البرية واعظمها جرمًا يبلغ علوهُ عشر اقدام او احدى عشرة قدمًا وثقله نحوًا من اربعين الف اقة. ولهُ قوائم غليظة تكاد لا تثني حتى زعم المتقدمون انها خالية من المفاصل وعليهِ قول احد طبيعيي العرب ان الفيل "لا ينام الَّا معتمدًا على ساق شجرة اذ لا يمكنهُ الاضطجاع لكون قوائمهِ لا مفاصل لها لكنها كالاساطين المصمتة والسواري الوثيقة" وليس ذلك بسديد لان قوائمهُ ذات مفاصل وهو يضطجع اضطجاعًا ولكنهُ لا يثني رجليهِ تحتهُ كالخروف ونحوهِ من ذوات الاربع بل يبسطها الى وراء. ورأسهُ كبير سميك العظام ولكنهُ غير ثقيل لان عظامهُ كثيرة المسام والتجاويف. ورقبتهُ قصيرة ودماغهُ كثير اللفائف عميقها وهو اثقل ادمغة الحيوانات كلها ولا يستثنى منها الانسان ولكن نسبة ثقلهِ الى ثقل جسدهِ كنسبة ١ الى ٥٠٠ واما دماغ الانسان فنسبة ثقلهِ الى ثقل جسدهِ كنسبة ١ الى ٣٩[1]. وجلدهُ سميك صفيق كثير الثني قليل الشعر جدًّا وصغارهُ اكثر شعرًا من كبارهِ. وذهب بعضهم الى ان الفيل كان في الاصل مشعرًا ثم انتزع الشعر عنهُ من سكناهُ الاقاليم الحارَّة واستدلَّ على ذلك من ان الفيل الذي كان قديمًا في سيبيريا وغيرها من الاقاليم الباردة كان كثير الشعر ومن ان افيال النواحي الباردة من الهند اكثر شعرًا من افيال النواحي الحارَّة

الفيل الهندي

الفيل الافريقي

ولم يبقَ من الفيل حيًّا سوى نوعين وهما الافريقي ووطنهُ جنوبي الصحراء الكبيرة والهندي ووطنهُ اسيا من حمالايا الى سيلان ويمتد شرقًا الى حدود الصين وجنوبًا الى صومترا وبورنيو. وتحت هذين النوعين تنوُّعات كالفيل الصومتري الذي عدَّهُ البعض نوعًا قائمًا بنفسهِ والفيل

(١) وهذه النسبة في غيرها من الحيوان كما ترى في هذه القائمة. في الحوت الكربلندي ١ الى ٢٠٠٠ وفي البقر ١ الى ١٦٠ وفي الخيل ١ الى ٤٠٠ وفي الكلاب ١ الى ٢٠٥ وفي الشمبنزي من القرود ١ الى ٥٠

الابيض[٢] الذي يكرمهُ اهل صيام اكرامًا دينيًا . وبين النوع الهندي والافريقي فروق كثيرة حتى زعم البعض ان كلاً منهما جنس قائم بنفسهِ فالهندي مقعَّر الجبهة صغير الاذنين لهُ في كل قائمة اربعة اظفار ولا انياب لاناثهِ والافريقي اكبر قدًّا من الهندي وهو محدَّب الجبهة كبير الاذنين لهُ في كل قائمة ثلاثة اظفار فقط ولاناثهِ انياب مثل ذكورهِ

واغرب ما في بناء الفيل خرطومهُ واسنانهُ اما خرطومهُ فهو انفهُ (وشفتهُ العليا) وقد استطال حتى بلغ نحوًا من ثماني اقدام وهو لهُ بمثابة اليد للانسان يمسك بهِ الطعام ويزجهُ بهِ في فمهِ ويمتص بهِ الماء ويصبهُ في حلقهِ او ينضحهُ على جسدهِ ويلتقط بهِ الابرة الدقيقة ويقتلع الشجرة الغليظة ويرجهُ كل موجهِ ويحتبهِ كل محنى ويصوت بهِ عند الغضب صوتًا اشبه بصوت البوق . وخرطومهُ هذا حساس جدًّا اذا وقعت بهِ اذبة جنَّ الفيل من الالم ولم يعد ينقاد الى احد وقد حسب الشهير كوفيه ان في خرطوم اربعين الف عضلة فلا عجب اذا قام بهذه الاعمال كلها وبغيرها مما يقصر الوصف عنهُ

واما اسنانهُ فثنيتان في الفك الاعلى وثمانية وعشرون ضرسًا في كلا الفكين ولا يكون في فمهِ من الاضراس في وقت واحد الا ثمانية . وثنيتاهُ هما نابا هُ المشهوران اللذان يستخرج منهما العاج . وهما يظهران في السنة الثانية من عمرهِ ولا يزالان بنموان مدى حياتهِ فيبلغ ثقل الواحد منهما نحو مئتي ليبرة وطولهُ احدى عشرة قدمًا ويمكنهُ ان يحمل بهما اربع مئة اقة ويقذف بهما الفهد الكبير ثلاثين قدمًا . قال المسعودي "وربما بلغ الناب منهما خمسين ومئة منٍّ واكثر من ذلك والفيل يحمل بهما على الجدار الوثيق البنيان فيلقيهِ على الارض وقد فتح بهِ محمد ابن سبكتين مدينة الطاق وهي من اعظم الحصون التي ببلاد سجستان فانهُ جعل نابيهِ تحت بابها فاقتلعهُ" وقال الدميري ان نابهُ قد يكون "اكثر من ثلاث مئة منٍّ" واما اضراسهُ فيبتدئ في مؤخر فكيهِ اثنان في كل لحي ثم تنمو لهُ اضراس اخرى امامها وكلما نما لهُ ضرس جديد وقع ضرس قديم فتبقى اضراسهُ ثمانية ويبلغ ما ينمو لهُ مدى حياتهِ ٢٨ ضرسًا . وبناء اضراسهِ غريب ايضًا لان كلاً منها صفائح قائمة متلاصقة كانهُ مؤلف من اضراس كثيرة . ويختلف وضع هذه الصفائح في الفيل الهندي عن وضعها في الافريقي

وعيناهُ صغيرتان لا يرى بهما مساحة واسعة لقصر رقبتهِ وليس ذلك بضائر عليهِ لانهُ يسكن الغابات الكثيفة حيث لا يقدر على اطلاق نظرهِ ولان سمعهُ حديد وشمهُ شديد فيستغني بهما عن

(٢) البياض في الافيال عرض في النمو كالبياض في الطيور والارانب والمرار والغربان وهو يتنقل بالارث على ما قاله داروين وقد تنوَّع بهِ بعض اعضاء الحيوان لعلاقة مجهولة بينها فان المرار الزرقاء العيون مثلاً تكون طرشاء لعلاقة مجهولة بين اللون والسمع

النفض (النظر الى كل جانب) . ومعدته كمعدة الجمل فيها كيس كبير يضع فيه الماء حتى اذا ارادهُ ردّه الى خرطومهِ واغتسل بهِ او قضى بهِ غير ذلك من الحاجات . وهو يعمّر عمرًا طويلاً فيفوت المئة والمئة والثلاثين . ونقل كتّاب العرب "ان فيلاً سجد لابرويز ثم سجد للمعتضد وبينهما اربع مئة سنة" . وتراهق انثاهُ في الخامسة عشرة وتحمل ٢١ شهرًا وهي تُنفذ (اي تلد واحدًا) وقد تتيم (تلد اثنين) وصغارهُ ترضع بافواهها لا بخراطيها والضرار شائع بين الافيال الوحشية واما الداجنة فقلّما تراوح وقلّما تلد . والوحشية تناجّل آجالاً كبيرة ويكون في كل اجل قائد وهو في الغالب اكبرها جسمًا واشدها باسًا فيقودها ويدبّر امورها وهي تنقاد اليهِ صاغرة وتدافع عنهُ اشد الدفاع حتى اذا ادركها الصيّادون وضيّقوا عليها احاطت بهِ وبذلت حياتها دونهُ . واذا انفصل فيل عن أجلهِ لا يقبلهُ أجلٌ آخر فيهم على وجههِ وهو اشدّ الافيال خطرًا واصعبها معاملةً

والفيل من اسرع الحيوانات انسًا بالناس واكثرها دماثة اخلاق وهو يذكر الحسنة والسيئة ويجازي عليها والوحشي منهُ يسكن الغياض الكثيفة في الجبال ويسري منها ليلاً الى السهول فيسطو على مزارع الارزّ والذرة ولكنهُ يتجنّبها اذا كانت محاطة بسور ولو من القصب الواهن لانهُ يخاف من البقاع المسوّرة ولولا ذلك لافسد في البلاد اي افساد . وطعامهُ الاثمار والحبوب وقصب السكّر وجوز الهند . والداجن منهُ يأكل في اليوم ما ثقلهُ مئتا ليبرة . ويحب الاقامة في الماء والسباحة فيسبح فيهِ رافعًا طرف خرطومهِ فوق الماء ليتنفس بهِ . ولاهل الهند طرق كثيرة في صيد الفيل الوحشي منها ان يركب الصيادون فيلين متعلمين على اغراء الافيال ويدنوا بهما منهُ فتقفان على جانبيهِ وتشاغلانهِ وحينئذٍ ينزل بعض الصيادين ويحيطون قوائمهُ بالحبال وهو غافل عن نفسهِ وعندما يشعر بهم ويحاول الهرب يمشون معهُ وطرف الحبل بيدهم حتى اذا بلغ شجرة عظيمة ربطوا الحبل بها فيسقط على الارض من شدة نفرتهِ ولا يزال يخبط حتى يضنيهُ التعب ويأخذ منهُ الجوع والعطش كل ماخذ فيدنو الصيادون منهُ ويأخذون في معاملتهِ تارةً بالشدة وتارةً باللين حتى يلين ويانس بهم

ومنها ان يذهب كثيرون منهم الى حيث تتردّد الفيلة ويحيطون قطعة ارض بسور كبير من جذوع الاشجار والاغصان ويطاردون قطيع الافيال اليها حتى اذا دخلتها سدّوا باب السور وجدّوا في اثرها من مكان الى آخر الى ان تنحصر في مكان ضيق فياتونها بالافيال الاليفة فتانس بها وحينئذٍ يحتالون على ربطها ودجنها كما تقدّم

وقد ألف الناس كثيرًا في طبائع الفيل وشحنوا المجلّدات بنوادرهِ . والظاهر ان الانسان استخدمهُ منذ زمان طويل في الحرب والصيد والحمل . والآن يُصطاد منهُ كل سنة نحو مئة الف

فيل لاجل العاج واذا بقي الامر على مثل ذلك لا تمضي مدة طويلة حتى ينقرض عن وجه الارض. ولعله ليس بين انواع الحيوانات العجم حيوان يدنوه فهمًا وانقيادًا ووفاء . وهو يشعر بالخطر قبل الوقوع فيهِ ولو لم يشعر بهِ الانسان ولا يخاطر بحياة صاحبهِ ولو خاطر بحياتهِ فاذا وصل الى جسر لا يحملهُ لم يَسِر عليهِ واذا حثَّ على السير عليهِ ولم يرَ لهُ مناصًا سار فسقط بهِ الجسر ومات غرقًا ولم يعصَ صاحبهُ. واذا غرق في حمأةٍ التقط كل ما طالهُ خرطومهُ ووضعهُ تحت رجليهِ وبطنهِ حفظًا لهُ من الغرق ولا يستثني شيئًا الَّا صاحبهُ فانهُ لا يسمح بهِ ولو كان دون ذلك هلاكهُ. وذاكرتهُ قوية جدًّا حكى الدكتور ولسن ان فيلةً من الحيوانات التي يدار بها للفرجة اصابها مغص شديد لانها شربت ماء باردًا وهي متعبة فدعا صاحبها رجلاً لعلاجها اسمهُ تُرْلي فوضع حرَّاقة على خاصرتها فزال الالم حالاً وكان ذلك سنة ١٨٧٤ . وبعد خمس سنوات مرَّ صاحب تلك الحيوانات من امام حانوت تُرْلي المذكور وكان واقفًا في باب حانوتهِ فاخترقت الفيلة صف الحيوانات الماشي معها وانتهت اليهِ ولفَّت خرطومها على يدهِ وهشت اليهِ وبشَّت كانها تحييهِ بالسلام وتذكرهُ بفضلهِ السابق . وفي تلك الليلة اتى ترلي الى المنزل الذي هي فيهِ فانست بهِ واشارت الى خاصرتها حيث وضع لها الحرَّاقة . وفي السنة الماضية (١٨٨١) بلغ الدكتور ولسن ان الفيلة المذكورة مرَّت في المكان الذي فيهِ ترلي المذكور فكتب اليهِ يستخبرهُ عمَّا كان من امرها في هذه النوبة فاجابهُ انها عرفتهُ حينما رأتهُ وهشت اليهِ ورفعتهُ عن الارض بخرطومها بكل تانٍ ثمَّ رفعت يدها ووجهتها اليهِ كانها تريد ان يراها ايضًا وكانت يدها سليمة فلم يعلم مرادها الَّا ان صاحبها اخبرهُ عند ذلك انهُ اصابها بها حادث فاتاها ببيطار فبضعها لها والمها المًّا شديدًا فتمددت عليهِ وكادت تنتقم منهُ . وكانها لمَّا رأت ترلي ارادت ان تخبرهُ ان يدها اصيبت ايضًا ولكنها عولجت علاجًا عنيفًا لا مثل علاجهِ اللطيف

وحكي ان فيلاً افلت وتوحَّش وبعد اربع سنوات من افلاتهِ كان قوم من الصيادين يصيدون الافيال فحصروها ضمن السور المشار اليهِ آنفًا وكان صاحب الفيل المفلت معهم فنظر واذا فيلهُ بين الافيال المحصورة فناداهُ باسمهِ فاقبل اليهِ واظهر من العلامات ما اقنع كل مَنْ حضر انهُ فيلهُ المفلت

ويقال ان الفيل يبكي من الحزن والالم وتهطل دموعهُ غزيرًا وان انانهُ يبكين على فراق صغارهنَّ بكاء مرًّا

وقد عانى الفيل من البشر منذ اتصالهِ بهم مشقَّات كثيرة قلَّلت عددهُ وغيَّرت موطنهُ الجغرافي وحمَّلتهُ ما لا يطاق من الآلام نروي من ذلك خبر مقتل الفيل الذي قتلهُ الانكليز سنة ١٨٣٦ كما ذكرتهُ جريدة التيمس حينئذٍ . قالت ان هذا الفيل في الاكسترتشانج سبع عشرة سنة وقد أتي بهِ

من بباي حيث اصطيد وهو في نحو الخامسة من عمره . ومنذ ما اصطيد الى ان قُتِل كان يهيج في كل سنة في دور معلوم وكان هيجانه يشتد سنة بعد سنة فلما هاج المرة الاخيرة حاول قتل حفظتهِ وكان يمرّغ في قفصهِ ويضرب عوارضهُ بخرطومهِ محاولاً انتزاعها (والعوارض المذكورة من خشب السنديان محاطة بالحديد ومحيط كلٍّ منها اكثر من ثلاث اقدام والبعد بين كل اثنتين منها نحو قدم فقط) فازاح عارضة منها عن موضعها بقوة ضرباتهِ المتوالية فخيف من افلاتهِ لانهُ اذا افلت على هذه الصورة عاث في البلاد وقتل خلقًا كثيرًا . فعزم صاحبهُ على قتلهِ بالسم مع ان ثمنهُ نحو الف ليرة انكليزية فرشّ السليماني على علفهِ وقدّمهُ لهُ فلم يذق منهُ شيئًا ولذلك لم تبقَ حيلة لقتلهِ الاّ الرمي بالرصاص فحُزِم قفصهُ بحبال متينة لكي لا يكسرهُ عند رميهِ واتى باربعة عشر رجلاً مسلحين فدنوا منهُ حتى صاروا على خمس عشرة قدمًا او ادنى ورموهُ بالرصاص في رقبتهِ تحت اذنيهِ فانّ انينًا شديدًا وضرب القفص بخرطومهِ ضربات عنيفة متوالية حتى ازاح عارضة من عوارضهِ وحينئذٍ خمد هيجانهُ فتقدّم الرماة ورموهُ برصاصهم ثانيةً فهاج وجعل يضرب القفص ضربًا شديدًا حتى خلع بابهُ ولكن كانت الحبال التي حُزِم بها القفص متينة جدًّا فمنعتهُ عن الافلات . ولمّا سكن هيجانهُ قليلاً تقدّم الرماة ثالثةً لكي يرموهُ برصاصهم فهرب من وجههم الى مؤخّر القفص واخفى راسهُ بين كتفيهِ خوفًا من اطلاق الرصاص عليهِ فوخزوهُ بالرماح حتى رفع راسهُ فرموهُ بالرصاص فاصابوا رقبتهُ وجرحوهُ جراحًا بليغة اسالت دمهُ غزيرًا ولكنهُ لم يظهر شيئًا من علامات الضعف سوى انهُ انقطع عن ضرب القفص وتاخّر الى مؤخرهِ (والظاهر ان مؤخر القفص كان مبنيًّا بالحجارة) وبقي الرماة يطلقون عليهِ الرصاص نحو ساعة ونصف حتى اوقعوا فيهِ مئة واثنتين وخمسين رصاصة فوقع على الارض لا يبدي حراكًا فربطوا سيفًا براس بندقية ونخروهُ بهِ ففاض دمهُ حتى ارنوت بهِ الارض . هذا ونوادر الافيال كثيرة نضيق بها الصحف فنجتزي عنها بما ذُكِر

اتساع جماجم البشر

بيّن الاستاذ فلور الجرّاح الانكليزي ان اتساع اكبر الجماجم الصحيحة ٢٠٧٥ سنتيمترًا مكعبًا واتساع اصغرها ٩٦٠ سنتيمترًا مكعبًا والصغيرة جاجم شعب بائد كان يسكن اواسط سيلان . وان اكبر الناس جماجم قبيلة تسكن شواطئ افريقية الغربية . وان معدّل اتساع جاجم الاسكيمو وهم اصغر الناس قدًّا ١٥٤٥ سنتيمترًا مكعبًا ومعدّل اتساع جاجم رعاع الانكليز ١٥٤٣ والياپانيين ١٤٨٦ والصينيين ١٤٣٤ والايطاليين ١٤٧٥ والمصريين القدماء ١٤٦٤ والهنود ١٤٠٦